

المبحث الرابع

لا حول ولا قوة إلا بالله

إن كلمة الحوقلة «لا حول ولا قوة إلا بالله» هي من الأذكار العظيمة القدر، الرفيعة المنزلة، العالية المرتبة، ولها من الفضائل والفوائد والمنافع ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، وقد كان النبي ﷺ يعلمها أصحابه ويحثهم عليها، وتأتي هذه الكلمة في الأذكار المطلقة والمقيدة في مواضع كثيرة⁽¹⁾.

أولاً : فضلها:

فمما يدل على فضلها وعلو منزلتها، ومما يرغب في الإكثار من قولها باللسان وإمرارها على الجنان أمور:

1 - إخبار النبي ﷺ عنها بأنها كنز من كنوز الجنة: فعن أبي موسى الأشعري ؓ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم ليس تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم، قال: وأنا خلفه وأنا أقول: قل، لا حول ولا قوة إلا بالله⁽²⁾.

(1) المباحث العقدية (2 / 887).

(2) البخاري، ك المغازي (4 / 1541) رقم 39668.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: قوله رَحِمَهُ اللهُ: «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة»: قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى واعتراف بالإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك شيئاً عن الأمر ومعنى الكنز هنا أنه ثواب مدخر في الجنة وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفُسُ أموالكم⁽¹⁾.

والكنز مال مجتمع لا يحتاج إلى جمع وذلك أنها تتضمن التوكل والافتقار إلى الله تعالى ومعلوم أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله وقدرته، وأن الخلق ليس منهم شيء إلا ما أحدثه الله فيهم⁽²⁾.

وقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» يوجب الإعانة ولهذا سنّها النبي رَحِمَهُ اللهُ إذا قال المؤذن: حي على الصلاة، فيقول المجيب: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فإذا قال: حي على الفلاح، قال المجيب: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وقال المؤمن لصاحبه: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: 39]، ولهذا يؤمر بهذا من يخاف العين على شيء فقلوه: ما شاء الله، تقديره: ما شاء الله كان فلا يأمن، بل يؤمن بالقدر ويقول لا قوة إلا بالله⁽³⁾.

2. ومن فضلها أن الله سبحانه يصدق قائلها ومن صدقه الله تعالى على ما يقول فليبشر بالخير بإذن الله⁽⁴⁾، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «إذا قال العبد: لا إله إلا الله والله أكبر، صدقه ربه، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا وحدي، وإذا قال: لا إله إلا الله

(1) شرح صحيح مسلم (17 / 26).

(2) مجموع الفتاوى (13 / 321).

(3) المصدر نفسه (13 / 321).

(4) المباحث العقديّة المتعلقة بالأذكار (2 / 891).

وحده لا شريك له، صدقه ربه قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا ولا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: صدق عبدي لا حول ولا قوة إلا بي⁽¹⁾.

3 - من فضلها أن من قالها حين يخرج من بيته مع البسمة والتوكل على الله أنه يوفى ويكفى ويهدى، فعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «إذا خرج من بيته فقال بسم الله وتوكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقال له: حسبك قد كفيت وهديت ووفيت فيلقى الشيطان شيطاناً آخر فيقول له: كيف لك برجل قد كفى وهدى ووفى»⁽²⁾.

4 - ومن فضائلها أنها من الباقيات الصالحات ومن أحب الكلام إلى المولى جل جلاله قال الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الْصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: 46].

فقد ورد في تفسير هذه الآية عن جمع من الصحابة والتابعين أن الباقيات الصالحات هي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله⁽³⁾، وسئل ابن عمر ؓ عن الباقيات الصالحات؟ فقال: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله⁽⁴⁾، وعن ابن عباس ؓ قال: هي ذكر الله،

(1) سنن الترمذي، ك الدعوات (5/ 492) رقم 3430.

(2) سنن أبي داود رقم 5095، قال الترمذي حسن صحيح.

(3) تفسير ابن جرير الطبري (15/ 255).

(4) المصدر نفسه (15/ 255).

قول: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واستغفر الله، وصلى الله على رسول الله والقيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد وأعمال الحسنات وهي الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة⁽¹⁾. وقد ورد في فضلهن أي: الكلمات الباقيات الصالحات أنهن يكفرن الذنوب، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كُفِّرَتْ عنه ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر»⁽²⁾.

5 - ومن فضائلها أنها غراس الجنة فقد ثبت أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به مر على إبراهيم عليه السلام فقال: من معك يا جبريل؟ فقال: هذا محمد، فقال له إبراهيم: أوْمُرْ أمتك فليكثروا من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة، قال: «وما غراس الجنة؟» قال: لا حول ولا قوة إلا بالله⁽³⁾.

ثانياً: معنى لا حول ولا قوة إلا بالله:

الحول: الحركة والحيلة أي لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى، وقيل: معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ولا

(1) المباحث العقدية (2/ 892).

(2) سنن الترمذي رقم 3460 وحسنه.

(3) ابن حبان في صحيحه (3/ 103) رقم 821.

قوة على طاعته إلا بمعونته، وحُكي هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وكله متقارب⁽¹⁾.

وقال الإمام الطحاوي في تفسيره لمعنى «لا حول ولا قوة إلا بالله»: لا حيل ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات كلها، وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضائه الحيل كلها يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]⁽²⁾.

ولا شك أن معنى لا حول ولا قوة إلا بالله أوسع وأعم مما ذكر، فلفظ الحول يتناول كل تحول من حال إلى حال، والقوة هي القدرة على ذلك التحول، فدلّت هذه الكلمة العظيمة على أنه ليس للعالم العلوي والسفلي حركة وتحول من حال إلى حال ولا قدرة على ذلك إلا بالله، ومن الناس من يفسر ذلك بمعنى خاص فيقول: لا حول من معصيته إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بمعونته، والذي يدل عليه اللفظ، أن الحول لا يختص بالحول عن المعصية وكذلك القوة لا تختص بالقوة على الطاعة، بل لفظ الحول يعم كل تحول.. وكذلك لفظ القوة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الزوم: 54].

ولفظ القوة لا يراد به ما كان في القدرة أكمل من غيره فهو

(1) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (4/ 87).

(2) العقيدة الطحاوية، ص: 444. 445 مع شرحها لابن أبي العز الحنفي.

قدرة أرجع من غيرها أو القدرة التامة ولفظ القوة قد يعم القوة التي في الجمادات بخلاف لفظ القدرة، فلهذا كان المنفي بلفظ القوة أشمال وأكمل فإذا لم تكن قوة إلا به لم تكن قدرة إلا به بطريق الأولى وهذا باب واسع⁽¹⁾.

ولكلمة «لا حول ولا قوة إلا بالله» تأثير في دفع داء الهم والغم والحزن، بسبب ما فيها من كمال التفويض والتبرئ من الحول والقوة إلا به وتسليم الأمر كله له وعدم منازعته في شيء منه وعموم ذلك لكل تحول من حال إلى حال في العالم العلوي والسفلي والقوة على ذلك التحول، وأن ذلك كله بالله وحده فلا يقوم لهذه الكلمة شيء وفي الآثار أنه ما ينزل ملك من السماء ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله، ولها تأثير عجيب في طرد الشيطان والله المستعان⁽²⁾.

ولا حول ولا قوة إلا بالله، دليل على إثبات القدر⁽³⁾.

وقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه هذه الكلمة العظيمة في أبواب عدة من صحيحه، ومن ذلك: كتاب القدر ومعروف أن فقه الإمام البخاري كما يقال في تراجمه مما يدل على أنه - رحمه الله - ما وضعها في كتاب القدر إلا لدلائلها عليه⁽⁴⁾.

إن كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله دخلت من باب القدر لكونها تدل على مرتبة من مراتبه وهي المشيئة، فقد ذكرنا أن مراتب القدر أربع مراتب ومنها: الإيمان بمشيئة الله النافذة في خلقه وأن ما شاء

(1) مجموع الفتاوى (5/ 575).

(2) زاد المعاد لابن القيم (4/ 204).

(3) شرح العقيدة الطحاوية، ص: 447.

(4) المباحث العقدية (2/ 900).

الله كان وما لم يشأ لم يكن، فعندما يقول العبد: «لا حول ولا قوة إلا بالله» يعتقد في قرارة نفسه أنه لا يستطيع التحول من أمر لآخر إلا إذا شاء الله له ذلك وقدره له، فلا ينصرف عن المعصية إلى الطاعة إلا بمشيئة الله تعالى، ولا ينصرف من المرض إلى الصحة إلا إذا كتب الله له الشفاء وشاء له، ولا يتحول من ضعف إلى قوة، ولا من ذل إلى عز، ومن قلة إلى كثرة، ولا من جوع إلى شبع ولا من فقر إلى غنى، ولا من خوف إلى أمن، ولا من شر إلى خير إلا بمشيئة الله وإرادته، فلا يتحول ويتقلب من أي حال مهما كان إلى حال غيره إلا إذا شاء له الله ذلك، كما أنه ليس لعبد في نيل مطلوب والحصول على مرغوب أو دفع مرهوب إلا إن أعانه الله سبحانه وأمدّه بقوة منه، فالعبد، بقوله لهذه الكلمة يتبرأ من حوله وقوته، ويعتقد أن الحول والقوة بالله وحده فهو سبحانه مالك الملك وخالق، بيده أمور الخلق يتصرف بهم كيف يشاء ويصرفهم حيث يشاء ويقلب أحوالهم من حال إلى حال على حسب مشيئته وحكمته وإرادته لا مانع لما قضى ولا لما أعطى، ولا معطي لما منع بيده الملك وهو على كل شيء قدير⁽¹⁾.

ثالثاً: تضمنت لا حول ولا قوة إلا بالله معان عقديّة عظيمة القدر: لمن فقهها غير دالّتها على القدر منها:

- 1 - أنها كلمة استعانة بالله العظيم، ومن استعان بالله جل جلاله، فالله سبحانه يعينه على قضاء حوائجه، وجميع ما يصلحه. والاستعانة بالله من أفضل العبادات وأجلّها وتعرف منزلتها وعظم

(1) المباحث العقدية (2/ 901).

شأنها من خلال سورة الفاتحة التي أمر الله سبحانه عباده أن يتعبدهم بتلاوتها يوماً مراراً، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الْفَاتِحَةُ: 5] فهذه الآية فيها إخلاص الاستعانة لله لأنه قدم ما حقه التأخير فأفاد حصر الاستعانة بالله وكذلك لا حول ولا قوة إلا بالله كلمة تحتوي على الإخلاص لله بالاستعانة فهي تدل على ما دلت عليه⁽¹⁾.

2 - الإقرار بأنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية، فقائلها يقر ويعتقد بأن الله وحده المدبر بهذا الكون المتصرف بحكمته ومشيئته فلا يقع فيه شيء إلا بإذنه ومشيئته، كما أنه معترف بأن من كان هذا وصفه فهو بالطبع غني عن خلقه قائم بذاته متصف بصفات الكمال من القدرة والعظمة والقوة والعزة، ومن يعتقد هذا في خالقه كان عليه التزاماً أن يؤلهه ويعبده ويقصده ويلتجئ إليه ولا يرجو أحداً سواه، ولا يدعو أحداً إلا هو، لأنه بيده التصرف التام وله الملك وهو على كل شيء قدير⁽²⁾.

3 - التوكل على الله وتفويض الأمور إليه والاستسلام والإذعان له مع إظهار الذل والافتقار له سبحانه فهو الغني والعبد فقير إليه لا يملك من أمره شيئاً.

ويجدر التنبيه هنا على أمر يُخطئ به بعض الناس ألا وهو: استعمالهم هذه الكلمة في غير موضعها اللائق بها، ونجم ذلك عن

(1) المباحث العقدية (2 / 902).

(2) المصدر نفسه (2 / 903).

عدم معرفة معناها ومحتواها فيجعلونها كلمة استرجاع لا كلمة استعانة بالله⁽¹⁾.

رابعاً: الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

الاحتجاج بالقدر على فعل المعصية قديم، قدم بدء الخليقة، وأول من قال به إبليس أعاذنا الله منه، فإنه بعد أن رفض أمر الله بالسجود لآدم عليه السلام واستحق غضب الله عليه بلعنه وطرده من رحمته وإخراجه من الجنة، لم يندم، ولم يتب، ولم يرجع على نفسه باللائمة، بل زاد عصياناً وتمرداً، بإضافة غوايته إلى الله، فقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39]. وهكذا تلقى كثير من البشر هذه الحجة الباطلة عن إبليس فغرقوا في الضلال ووقعوا في المعاصي والآثام ثم احتجوا على ذلك بالحجة الإبلسية، وقالوا: هذه شيء قدّره الله علينا فحملوا مسؤولية خطاياهم على ربهم، وهو الذي نهاهم عن تلك المعاصي، وقد أخبر الله عن أمثال هؤلاء⁽²⁾:

. قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسًا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: 148].

. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ

(1) الحوقلة مفهومها وفضائلها ودلالاتها العقديّة، عبد الرزاق العباد، ص: 83.

(2) عقيدة أهل السنة والجماعة، د. سعيد مسفر القحطاني، ص: 253.

دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ
فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ [النحل:

[35].

. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا
أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا
عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف:
19. 20]، وقد رد الله في القرآن الكريم هذه المزاعم، ووصف
أصحابها بالكذب والتخرف، صحيح ما يجري في الكون يجري
بمشيئة الله الكونية، ويقع وفقاً لإرادته، ولكن دعوى المشركين أنهم
وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب تلك المشيئة الإلهية والإرادة الإلهية،
باطل ومردود لما يأتي.

1 - إن مشيئة الله غيب لا يعلمه أحد قبل أن يقع، فمن أين
لهؤلاء المشركين أن يعلموها ويحيلون عليها شركهم وضلالهم، كما
أن علم الإنسان محدود، ومن ثم لا أحد يستطيع أن يعلم ما قدره الله
في المستقبل من خير أو شر إلا بعد وقوع أحدها له أو عليه، أما قبل
ذلك فلا علم لأحد بما سيحصل ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34] فلو
كان عند المشركين من حجة مقنعة بأن الله راضٍ بذلك فليظهروها،
وإلا فإن دعواهم معرفة الغيب وكشف أسرار كذب على الله،
ودعوى باطلة لا برهان لهم عليها.

2 - إن الله أذاق الكافرين السابقين ألوان العذاب وأصناف

العقاب جزاء على كفرهم، فلو لم يكونوا مختارين لما ارتكبه من جرائم وآثام وكفر وشرك لما عذبهم الله لأن الله عدل لا يظلم أحدا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]⁽¹⁾ وقال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّبْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 40].

3 - إن الله خلق البشر وفطرهم على الاستعداد للخير والشر والهدى والضلال، ومنحهم العقل لترجيح واحد من هذه على الأخرى، وبيّن لهم الآيات الكونية الهادية إلى الحق والخير، وأرسل الرسل وأنزل الكتب والشرائع كموازين ثابتة تعين الإنسان في اختياره، ومن ثم فلا حجة للإنسان بأن وقوعه في الضلال وانحرافه عن الحق لم يكن باختياره وإرادته، أو أن قدر الله هو الذي أضله⁽²⁾، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: 7 - 8].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرَّا وَإِنَّمَا كَفَرُوا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: 3] ، ويقول سبحانه ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البند: 10] ، فكل إنسان إذن مسؤول محاسب على عمله من خير وشر⁽³⁾.

4 - إن سلف هذه الأمة قد فهموا القدر على حقيقته، ومن ثم

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد محمد جلي، ص: 385.

(2) المصدر نفسه، ص: 210.

(3) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، سعاد ميبر، ص: 210.

ردوا ما تعلل به أصحاب الأهواء والشهوات. ويروى أن أحد اللصوص سرق في عهد عمر رضي الله عنه فأحضر بين يديه فسأله عمر قائلاً: لم سرقت؟ فقال: قدر الله ذلك. فقال عمر رضي الله عنه: اضربوه ثلاثين سوطاً ثم اقطعوا يده. فقيل له: ولم؟ فقال: يقطع لسرقته ويضرب لكذبه على الله، ويقول الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله تعالى العبد على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى، بما يكون من اكتسابات العبد، وصدورها عن تقدير منه، وخلقها خيرا وشرها⁽¹⁾.

5- إن هذا القول «الاحتجاج بالقدر» يلزم منه أن يستوي أولياء الله وأعداء الله، ولا يتميز الأبرار من الفجار، ولا أهل الجنة من أهل النار، فإن هؤلاء جميعاً قد كتب مقاديرهم، قبل أن يخلقهم، وهم مع هذا قد انقسموا إلى سعيد بالإيمان والعمل الصالح، وإلى شقي بالكفر والفسوق والعصيان⁽²⁾.

. قال تعالى: ﴿أَفَجَعَلَ السَّالِفِينَ كَالْخَيْرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٦﴾ [القلم: 35، 36].

. وقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿١٨﴾ [ص: 28].

. وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ

(1) صحيح مسلم، شرح النووي (1/ 154-155).

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 63.

الْجَنَّةِ هُمْ الْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ [الحشر: 20] .

وملخص القول في الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

لو كان الاحتجاج بالقدر مقبولا لقبول إبليس وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة للعباد لم يعذب أحد من الخلق لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو كان القدر حجة لم تقطع يد سارق، ولا قتل قاتل، ولا أقيم حد على ذي جريمة، ولا جاهد في سبيل الله، ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر⁽¹⁾، وهذا من الفساد في الدين والدنيا المعلوم ضرورة فساده بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول⁽²⁾. وأخيراً فإن المحتج بالقدر يكذب واقع دعواه، إذا أنه لا يعمل بالقدر كل أحواله، وإلا لو كان صادقاً في زعمه لرضي بكل ما يقدره الله عليه من فقر وذل وجوع وذهاب مال، والواقع يشهد بعكس ذلك ويؤكد سعيه بكل الوسائل لجمع المال ودفع المرض وإذهاب الجوع.. الخ ولو كان المحتج بالقدر صادقاً في احتجاجه للزم أن لا ينكر على من يظلمه ويشتمه ويأخذ ماله ويفسد حريمه ويضرب عنقه ويهلك الحرث والنسل، وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون⁽³⁾، فإن أحدهم لا يزال يذم هذا، ويبغض هذا، ويخالف هذا، حتى إن الذي ينكر عليهم يبغضونه ويعادونه، وينكرون عليه، فإن كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات لزمهم أن لا يذموا أحداً ولا

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية (8/ 264-265).

(2) مجموع الرسائل والمسائل (5/ 139).

(3) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي، ص: 387.

يبغضوا أحداً، ولا يقولوا في أحد: إنه ظالم ولو فعل ما فعل، ومعلوم أن هذا لا يمكن أحد فعله، وفعل الناس هذا لهلك العالم، فتبين أن قولهم فاسد في العقل... وأنهم كذابون مفترون في قولهم: إنَّ القدر حجة للعبد⁽¹⁾.

- هل احتج آدم ﷺ على الذنب بالقدر؟

ومن أشهر الأدلة التي يستدل بها المحتجون بالقدر على توسيع تفريطهم وعصيانهم حديث احتجاج آدم وموسى . عليهما الصلاة والسلام . وهو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أثلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فجح آدم موسى ثلاثاً»⁽²⁾؟

لقد تسرع بعض الناس فأنكروا هذا الحديث حين ظنوه سنداً للاحتجاج على الذنوب بالقدر، وتمحل آخرون تأويلات غير مقبولة، واتخذة آخرون تكأة يتوكؤون عليها، ويستندون إليها إذا وقعوا في الذنوب والآثام والديث لا مطعن في صحته، فقد رواه الشيخان عن حديث أبي هريرة وروى في السنن بإسناد جيد من حديث عمر رضي الله عنه⁽³⁾ والحديث يشير إلى أمور في غاية الوضوح منها:

- (1) مجمع الفتاوى ابن تيمية (8 / 263).
- (2) مسلم ك القدر رقم 13 (4 / 4042.4043)، البخاري، ك القدر (7 / 214).
- (3) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 66

1 - أن الحديث ليس فيه أن موسى لام آدم على المعصية، وإنما فيه أنه قاله: يا آدم أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، وظاهر هذا القول أنه لامه على الإخراج من الجنة لا على الأكل من الشجرة، فيكون اللوم على المصيبة التي حصلت بسبب المعصية، لا المعصية نفسها⁽¹⁾، والمؤمن مأمور على نزول المصائب أن يرجع إلى القدر ويحتمي به، فإن سعادة العبد أن يفعل المأمور ويترك المحذور، ويسلم للمقدور، ولهذا علمنا رسول الله ﷺ أن نقول عند حلول ما نكره: قدر الله وما شاء فعل⁽²⁾.

2 - أن موسى ﷺ أعرف بالله سبحانه وبأمره ودينه من أن يلوم على ذنب قد أخبره الله أنه تاب على صاحبه، واجتبه بعده وهده **﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾** [طه: 122] ، وموسى ﷺ ومن هو دون موسى منزلة يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة، لا يبقى وجه الملامة على الذنب، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له⁽³⁾، وآدم أعلم بالله جل شأنه من أن يحتج بالقدر على الذنب، كيف وقد اعترف به واستغفر منه بقوله: **﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَقَفِيرٌ لَنَا وَرَحْمَةً لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾** [الأعراف: 23]⁽⁴⁾.

3 - إن الاحتجاج بالقدر على المصائب جائز، وكذلك الاحتجاج بالقدر على المعصية بعد التوبة منها جائز، وأما الاحتجاج

(1) منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة (1 / 425).

(2) مسلم رقم 2664.

(3) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 67.

(4) المصدر نفسه، ص: 67.

بالقدر على المعصية تبريراً لموقف الإنسان واستمراراً فيها فغير جائز⁽¹⁾.

4 - من مسائل القدر في هذا الحديث، سبق الكتاب، أي كتابة كل شيء قبل وجوده، وفيه مقارنة بين حجة آدم وحجة موسى عليهما السلام، ثم تعقيب الرسول ﷺ بقوله: «فَجَعَلَ آدَمَ مُوسَى، ويكررها ثلاثاً»، ولا يقول الرسول الكريم أن كلام موسى خطأ، بل يلفت النظر إلى شمول و حجة آدم ﷺ⁽²⁾.

. الحكمة من وجود المعاصي والكفر:

لوقوع المعاصي والكفر حكم كثيرة منها:

1 - إتمام كلمة الله تعالى حيث وعد النار أن يملأها قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخَلِّفِينَ﴾  إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿[هود: 118-119].

2 - ظهور حكمة الله تعالى وقدرته حيث قسم العباد إلى قسمين: طائع وعاص، فإن هذا التقسيم يتبين به حكمة الله ﷻ فإن الطاعة لها أهل هم أهلها، والمعصية لها أهل هم أهلها قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124].

- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾  . [محمّد: 17] فهؤلاء أهل الطاعة.

(1) المجموع الثمين لابن عثيمين (2/ 159).

(2) القدر في ضوء الكتاب والسنة، محمد فتح الله كولن، ص: 48.

- وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٧٥) [التوبة: 125].

- وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5] ، وهؤلاء أهل المعصية، ويتبين بذلك قدرته بهذا التقسيم الذي لا يقدر عليه إلا الله كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 272] .

- وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56].

3 - لجوء العبد إلى ربه بالدعاء أن يباعد بينه وبين المعصية والدعاء عبادة لله تعالى .

4 - ومنها أن العبد إذا وقع في المعصية ومن الله عليه بالتوبة ازداد إنابة إلى الله وانكسر قلبه وربما يكون بعد التوبة أكمل حالاً منه قبل المعصية حيث يزول عنه الغرور والعجب ويعرف شدة افتقاره إلى ربه⁽¹⁾ .

5 - ومنها أن يتبين للمطيع قدر نعمة الله عليه بالطاعة إذا رأى حال أهل المعصية قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَرُكَّعِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164] .

6 - ومنها إقامة الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه

لولا المعاصي والكفر لم يكن جهاد ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلى غير ذلك من الحكم والمصالح الكثيرة والله في خلقه⁽¹⁾ شؤون.

(1) المجموع الثمين لابن عثيمين (1 / 171).